

## الشيخ حسن العطار

أستاذ الأساتذة في النهضة المصرية

هذا الشيخ حسن العطار من الأسماء اللامعة الناصعة ، فقد كان شيخًا للأزهر (١٢٤٦ هـ - ١٢٥٠ هـ) وهى السنوات الموافقة لسنة ١٨٣٠ م وسنة ١٨٣٤ م فى عز دولة محمد على .

ولكن مشيخة الأزهر مع جلالها وعظمتها لم تكن سبب شهرة الشيخ حسن العطار ، فقد تولى هذه المشيخة علماء كثيرون لم يبلغوا ما بلغه هذا الشيخ المتفتح الذهن ، العصرى التفكير من شهرة طبقت الآفاق بعد نبوغ تلميذه الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى الذى نعتبه رائد النهضة الثقافية فى مصر الحديثة .

أليس من الظلم أن نعرف التلميذ ولا نعرف الأستاذ ؟  
هناك أخطاء كثيرة فى تاريخ مصر الحضارى أفدح وأخطر من أخطاء تاريخها السياسى ، وقد تسببت هذه الأخطاء فى إصدار أحكام خاطئة على حركة النهضة الثقافية المصرية فى العصر الحديث ، واعتقد بعض الكتاب أن هذه النهضة مستوردة من أوروبا ؛ لأنهم لم يعرفوا أصولها وجذورها ، فبعدت أصالتها عن عيونهم ، وظنوا أن رجلاً مثل رفاعه بك نقل من فرنسا كل مظاهر الفكر الحديث ، ولم يدركوا معنى التفاعل الذى بدأ فى مصر قبل أن يسافر الشيخ رفاعه ورفاقه إلى باريس ، وظلّ هذا التفاعل قائماً بعد أن لمع اسم رفاعه بك ناظر مدرسة الألسن الذى جعل نصف دروس هذه المدرسة العظيمة من العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر ، وكان يلقيها علماء من الأزهر فى النحو والبلاغة والفقه والتفسير وغيرها من علوم .  
لذلك كان الدور الذى قام به الشيخ حسن العطار عجباً غريباً بمقياس عصره ، لم يسبقه إليه شيخ من شيوخ الأزهر ، ولم يلحقه واحد منهم أيضاً طوال العصر الحديث حتى عصر الأمتاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ ولذلك أضيفت إلى مشيخته الجليلة للجامع العتيد قيمة أخرى فى تيار النهضة المصرية ، وهى الارتباط الوثيق المتين بحضارة العصر الحديث التى ظهرت فى أوروبا .

ولم يكن رفاعه رافع هو التلميذ الوحيد في هذه المدرسة ، وإن كان أنبغ التلاميذ ، فقد كان الشيخ محمد عياد الطنطاوى من نوابغ هذه المدرسة أيضاً ، وعندما طلب القيصر الروسى من محمد على إيفاد أستاذ لتدريس اللغة العربية في جامعة ( سان بطرسبورج ) واسمها الآن ( لينتجراد ) ، رشح الشيخ العطار تلميذه الشيخ الطنطاوى لمحمد على ، وسافر الشيخ طنطاوى إلى روسيا بحبته وقبطانه وعمامته . وظلّ محافظاً على زيّه الأزهرى حتى توفى في ( سان بطرسبورج ) ودفن هناك ، وهذا الشيخ الأزهرى هو أستاذ المستشرقين الروس . وهمة الوصل بين الثقافة العربية والثقافة الروسية خلال عصر القياصرة . وألف عنه المستشرق الروسى الشهير ( كراتشكوفسكى ) كتاباً ترجم إلى اللغة العربية ونشر في مقدمته صورة الشيخ الطنطاوى بحبته وعمامته .

وكان الشيخ عياد الطنطاوى شاعراً ، وله ديوان مخطوط في دار الكتب المصرية ، وقد اطلعت عليه ، وأدركت كيف تأثر التلميذ الشاعر بأستاذه الشاعر ، فقد كان الشيخ العطار شاعراً ولكنه لم يجمع ديوانه .

وقبل أن أحدثك عن شخصية الشيخ العطار ، أقول لك إن هذا الرجل كان بصره يمتد إلى الآفاق البعيدة خارج مصر ، وكان قد قام برحلات إلى ألبانيا وتركيا وبلاد الشام ، وكان يتقن بعض اللغات الأجنبية ومنها التركية والألبانية ، ولكننا لا نعرف اللغات الأخرى التى تعلمها ، ولعله تعلم اللغة الفرنسية أيام حملة بونابرت على مصر ، فقد كان يخاطب الفرنسيين ، ويخالسهم مع صديقيه الحميمين : الشاعر إسماعيل الخشاب والمؤرخ عبد الرحمن الجبرى ، وكان هو أكثرهم علماً وثقافةً ومعرفة .

لقد كان الشيخ حسن العطار وثيق الصلة بمحمد على ؛ لأنه كان يرشح له شباب الأزهر للسفر في المهات العلمية خارج مصر ، وقد حدثتك عن تلميذه الشيخ عياد الطنطاوى الذى كان أستاذاً لمدرسة الاستشراق في روسيا ، وظل اسمه لامعاً في تاريخ الاستشراق الروسى حتى اليوم .

ولكن . . هل كان الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى هو التلميذ الوحيد الذى رشحهُ الشيخ حسن العطار للسفر في البعثة إلى فرنسا سنة ١٢٤١ هـ ( ١٨٢٦ م ) ؟  
وهل كان الشيخ رفاعه إماماً للبعثة كما يقول المؤرخون الذين تناولوا سيرته ؟

يقول على باشا مبارك :

« إن محمد على باشا طلب إلى الشيخ العطار أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى يرى فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعه لتلك الوظيفة » .  
ولذلك فإننا لا نشك في أن رفاعه بك كان إمام البعثة ، بل إنه تقرر له مرتب يوزباشى ؛ لأن مرتبات الوظائف في عصر محمد على كانت ترتبط بالرتب العسكرية ، ورتبة ( يوزباشى ) لا يمكن منحها لطالب البعثة .

وقد رشح الشيخ العطار في هذه البعثة بعض شباب الأزهر الذين سافروا إلى باريس ، وقد وردت أسماءهم في سجلات هذه البعثة الأولى مع لقب ( الشيخ ) ، وهذا هو الجديد في الموضوع ؛ لأن الشيخ رفاعه لم يكن هو الأزهرى الوحيد الذى سافر إلى باريس ، بل إن شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار كان يرى فتح آفاق جديدة لتلاميذه الذين جلسوا أمامه فوق حصير الجامع لتلقى العلوم الحديثة في فرنسا ، وكان يعتقد أنهم يستطيعون هذه الدراسة .

كانت البعثة تحت إشراف المسيو جومار الذى ذكر من هؤلاء الأزهريين :

• الشيخ محمد الدشطوطى . . تخصص في الطب والجراحة .

• الشيخ أحمد العطار . . تخصص في الميكانيكا .

كما ذكر ثلاثة من المشايخ عادوا إلى مصر لأسباب صحية أو لعدم أهليتهم .

وهناك شيخان آخران طبيان تعلموا في فرنسا وهما :

• الشيخ نصر أبو الوفا .

• الشيخ إبراهيم . . الحكم .

ومما يلفت النظر أنها احتفظا بلقب الشيخ في إصرار ، ولم يحملا لقب الدكتور ، وقد صدر أمر من محمد على باشا في ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ لتعيين الشيخ نصر بدلاً من الخواجة فرباى حكيمباشى مستشفى البحرية بالإسكندرية .

والشيخ نصر أبو الوفا حكيمباشى مستشفى البحرية بالإسكندرية هو جد الدكتور محمد نصر الذى كان وكيلاً لوزارة الصحة المصرية في الأربعينات . وكان من مشاهير الأطباء .

لقد أصبحنا كمن يبحث عن نفسه في الظلام .

إن الشيخ حسن العطار هو شيخ الأزهر الذى فتح الأبواب والنوافذ للنور ، وأخرج تلاميذه من صحن الجامع ليجلس واحد منهم على كرسي الجامعة في ( سان بطرسبورج ) ،

وليجلس آخرون على مقاعد الدرس في جامعة باريس ، فكان منهم أطباء وعلماء في الكيمياء .

وكان الشيخ نفسه يمارس الطب على الطريقة القديمة التي تركزت في أيامه داخل صفحات كتاب قديم اسمه ( تذكرة داود الأنطاكي ) ، كما كان يجيد كثيرًا من العلوم والفنون . ومنها علم الفلك ، وله رسالة مشهورة في كيفية العمل بالاسطرلاب .

هذا الشيخ من عجائب الزمان .

كان أبوه عطارًا في القاهرة ؛ ولذلك اهتم بدراسة الطب ، عندما كانت روضة الطبيب تصرف من دكان العطار ، وقد ظلّ بعض الأطباء الذين تخرجوا في مدرسة طب قصر العيني في الجيل الماضي يتعاملون مع العطارين في وصف الدواء للمريض على الطريقة المصرية القديمة ، وقد لحقت أحدهم أثناء إقامتي في حلوان ، وقال لي إن الفارماكوبيا الحديثة مأخوذة من عندنا ، فلماذا لا نعود إلى الأصل ؟

رحم الله أيامًا مضت .

تعلم الشيخ حسن العطار الذي كان من أصل مغربي في الأزهر ، وأخذ العلم عن أئمة الشيوخ ومال إلى علم الفلك والطب ، كما استهواه الأدب فأجاد الشعر والنثر . ثم قام بسياحات في العالم الإسلامي . وصفها في بعض كتاباته اللطيفة المسجوعة ، فقال في وصف اسطنبول :

« الخليج القسطنطيني المتحف بعرائس القصور ، والرياض المعطرة بروائح الزهور ، وملاعب الولدان والخور . ومجتنى ضروب الملذات والسرور ، ومساحب أذيال الحبر والخبور ، حيث الفلك بيدور الحسن في ذلك الخليج ساجحة . غادية في ضروب المسرات رائحة ، والزوارق على وجه الماء ، تنساب كالحية الرقطاء . تتلاعب بها أمواجه . ويزيد بها الناظر سروره وابتهاجه . »

كما وصف بلاد الترك وبلاد الشام ، وأعجبه دمشق . فكتب عنها ، وزار القدس فقال : « تنجلي بمشاهدة حرمة الشريف همومي ، وتزول غمومي ، وينشرح صدري . وتصفو مرآة فكري . وتعذب مواردی ، وتحمد مصادري ومواردی ، ناهيك برقة نسيم . ومرأى وسيم وعيش عهده غير ذميم ، وكأن ساكنه في جنات النعيم . »

وبعد هذه السياحة عاد إلى مصر ، والتقى بالشاعر إسماعيل الحشاب فلم يفترقا .

يقول الجبرتي وهو ثالث الثلاثة :

- خالطه ورافقه ووافقه ولازمه فكان كثيراً ما يبيتان معاً ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر والطف من اتساق نظم الدرر ، وكثيراً ما كانا يتنادمان بداري لما بيني وبينها من الصحبة الأكيدة والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندي ، ويطرحان الكلفات التي هي على النفس شديدة .

وقد وصف الجبرتي هذه الصداقة وصفاً شائقاً ، فيه حرارة وصدق ، وقال إن الشيخ حسن العطار وإسماعيل الخشاب ، كانا أعظم أدباء مصر في ذلك العصر .  
قال : الشيخ العطار في موشع من موشحاته :

أما فؤادي فعنك ما انتقلا  
فلم تخيرت في الهوى بدلا  
يامعريضا عن محبة الدنف  
ومغرماً بالجمال والصلف  
ومن به ذاد في الهوى شغفي  
أما كفى ياظلوم ما حصلا  
حتى جعلت الصدود والملا  
فرد عليه إسماعيل الخشاب قائلاً :  
يهتز كالغصن مال معتدلا  
أطلع بدرأ عليه قد سُدلا  
يزرى بسم الرماح إن خطرا  
ساحر جفن لهجتي سحرا  
علم عيني البكا والسهرا  
فكيف أبغى بحبه بدلا  
وليس لي عنه جَار أو عدلا

وبعد أن توفي إسماعيل الخشاب تولى الشيخ حسن العطار جمع شعره وطبع ديوانه ولكن أحداً لم يجمع شعر العطار ولم يطبع ديوانه بعد وفاته . بل ضاع شعره .

ويقول الجبرتي إن الشيخ حسن العطار سكنت عن نظم الشعر وكتابة النثر بعد وفاة صديقه

الشاعر إسماعيل الخشاب ، واشتغل بتقرير العلوم وتحقيقها . والتأليفات المتنوعة في الفنون المختلفة ، وذكر أنه سعى في خدمة العلم ، وتدريس الكتب الصعبة ، حتى أصبحت له شهرة بين الطلاب في الأزهر .

وعن طريق العلم وصل إلى مشيخة الأزهر . وكان سابقاً لعصره من ناحية اهتماماته العلمية فقد شاهد بنفسه مظاهر العلوم الحديثة التي جاءت مع الحملة الفرنسية إلى مصر ، ودخل مع صديقه الجبرقي معامل الكيمياء والطبيعة ، ولم يتعجب مما رأى كما فعل الجبرقي ، ولم يصبه الدهول ، فقد كانت خلفيته العلمية تمكنه من إدراك حقائق هذه العلوم الحديثة التي شاهدها ؛ ولذلك رشح لمحمد علي بعد سنوات قلائل بعض شباب الأزهر للدراسة في فرنسا كما قلت لك ، وحقق بعضهم نجاحاً في علوم الطب والجراحة والكيمياء ، كما حفظوا لأستاذهم وشيخهم أعظم ما يملكه الأزهر من ألقاب وهو لقب ( الشيخ ) . وكأنهم أرادوا بذلك أن يقولوا للعالم إن الأزهر قادر على ممارسة العلوم الحديثة ولو كانت فوق رؤوس علمائه العظام . . وقد ظلت العظمة فوق رأس رفاة بك أنيغ تلاميذ الشيخ العطار .

كان ذلك في سنة ١٨٢٦ ميلادية .

ولكن ماذا جرى في الأزهر خلال قرن من الزمان بعد ذهاب الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ؟

علماء ومشايخ أنكروا العلم الحديث . وشيوخ للأزهر زعموا أنه ضلال وكفر مبين . وواحد منهم أنكروا كروية الأرض عندما ألف ألفية في الجغرافيا . وقال :  
والأرض قالوا إنها كره .  
وقولهم هذا ما أكفره .

إن السطور القليلة المبثرة بين صفحات الكتب عن حياة هذا الرجل لا تكفي لمعرفة ، بل إن صديقه الجبرقي وهو مؤرخ كبير ، لم يطلعنا على ملامح شخصيته بصورة واضحة . ولكننا نستوضح بعض جوانب هذه الشخصية الفريدة النادرة مما كتبه صاحبها وهو صفحات قليلة لم تبلغ المائة صفحة ، جمعها في كتاب صغير قدمه إلى مكتبة الجهادية المصرية في عصر محمد علي .

كان الشيخ العطار عالماً يقدر كل العلوم على اختلافها . ولكنه يرى بعين الصواب أن

العلوم الشرعية هي أرقى العلوم ، وأنها لا تمنع من دراسة أى علم من العلوم ، بل إنها تحتاج إلى معرفة كل العلوم .

كتب فى إجازة لأحد تلاميذه . وهى شهادة التخرج كما نقول اليوم :  
 « والعلوم وإن كثرت أنواعها ، وتباينت أوضاعها ، فاجلها قدرًا . وأرقها ذكرًا . وأبهاها حسنًا . وأفضلها اقتناءً . وأعلاها ارتقاءً . وأغزرها ارتواءً . وأكملها إشراقًا . وأجملها اتساقًا .  
 العلوم الشرعية . التى هى مقاصدها . ولأجلها تلتبس فوائدها » .

ومعنى ذلك أن كل العلوم تنتهى إلى العلوم الشرعية ؛ لأن مقاصد هذه العلوم هى الوصول إلى علم الشريعة .

وكتب فى إجازة أخرى لطالب آخر تخرج على يديه :

« فلان . . انتظم سلك دروس العلماء الأزهريين .

استجاز الفقير ( الشيخ حسن العطار ) بعد أن لازمه فى كتب عديدة ، وفنون مفيدة ، من المعقول والأدب . وهما مما يدرك به الطالب للعلم الأرب ، وللعلوم الشرعية نعم الوسائل ، والتحلى بهما تترين به المجالس والمحافل . فأجزته بما تجوز لى روايته . وما يسند إلى درايته . من معقول ومنقول ، وبما لى من التأليف والنقول » .

وأنت ترى أن شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار يمنح تلاميذه الإجازة ، أى الشهادة النهائية فى العلوم العقلية والعلوم الأدبية والعلوم الشرعية .  
 ثم جاء من بعده أقوام حرموا تدريس علم المنطق والعلوم الفلسفية فى الأزهر ، وهى العلوم العقلية . بدعوى أنها تفسد العقيدة أو تضعف الشريعة .

وعندما غثت أم كلثوم قصيدة :

وحقك أنت المني والطلب

وأنت المراد وأنت الأرب

قلت لأصحاب الموسيقى إن هذه القصيدة من شعر شيخ الإسلام وشيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى المتوفى يوم الخميس السادس من ذى الحجة سنة ١١٧١ هـ . ( ١٧٥٧ م )  
 أى منذ أكثر من مائتى سنة .

يذكرنى هذا الشعر الظريف بأشعار مولانا الإمام الشيخ حسن العطار ، وقد نقلت لك مقطعًا من إحدى موشحاته ، ومن لطائف شعره قوله عن الفرنسيين أيام حملة بوناپرت .

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم .

في مصرنا ما بين حمّار وخمار .

لقد كان الشيخ العطار كما وصفه الجبرتي أديبا شاعرا لا يشقّ له غبار ، ولكن شعره مفقود ، وليس له ديوان كما قلت لك .

ومن ألطف أعماله الأدبية أنه جمع أقوالاً مأثورة من الشعروالنثر وضمها في كتابه الصغير الذي حدثتك عنه ليتعلم منها تلاميذه فنون البلاغة ، وهذه المختارات تدل على ذوق رفيع ومنها أبيات شعر ، ومنها شطور أبيات ، وعندما قرأتها تذكرت أنها كانت من محفوظات التلاميذ في المدارس في أيامنا . فهل نقلوها عن هذا الشيخ الأديب الشاعر العالم الطريف ؟ لا أريد أن أنهى الحديث عن هذا الأستاذ العظيم الذي يكفيه فخرا أنه علّم رفاعة بك فاستحق أن يوصف بأنه أستاذ الأساتذة .

ولكن ماذا أصنع ؟ لم يبق عندي كلمة أقولها .

ألم أقل لك بين السطور إننا أصبحنا كمن يبحث عن نفسه في الظلام ؟

كنت أحب أن أزيدك معرفة بهذا الأستاذ الجليل . . ولكن ما باليد حيلة .

## رفاعة بك

### أول مؤلف للأناشيد الوطنية

هذا جانب جديد من فكر رفاعة بك رائد الثقافة المصرية الحديثة ، فقد ذكر كثيرون من المؤرخين أنه ترجم نشيد المارسليليز من اللغة الفرنسية إلى العربية ، وقد حاولت العثور على هذه الترجمة فلم أصل إلى نصها حتى في مكتبة رفاعة بك في سوهاج بعد أن قلبت فهارسها ، وراجعتها مراجعةً دقيقةً .

ولكن رفاعة بك ترك لنا ثروة من المنظومات أطلق عليها اسم الوطنيات ، وهي لون جديد من النظم العربى نطلق عليه اسم النشيد فقد عرفنا اللحن الموسيقى الذى يؤدى من أجل مخاطبة الجماهير ، وليس من أجل الطرب .

لقد ابتكر رفاعة بك هذه المنظومات فى الأدب العربى ، وهى نوع من الومضات الخاطفة التى قد لا تتسنى لكبار الشعراء ، فقد عجز أمير الشعراء أحمد شوقى عن كتابة نشيد تردده الجماهير ، وكان النشيد الذى فاز فى مسابقة النشيد الوطنى المصرى هو نشيد الشاعر محمود محمد صادق الذى يقول فى مطلعہ :

بلادى بلادى فداك دى  
وهبت حياى فدى فاسلمى

وتراجعت أيضًا أناشيد شاعر النيل حافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد أمام نشيد محمود صادق ، لا بسبب عبقرية صادق الخارقة ، ولكن بسبب الومضة الخاطفة ، وهذا هو ما حدث بالنسبة لنشيد سيد درويش الشهير :

بلادى .. بلادى

وهو نفس مطلع النشيد الوطنى الذى كتبه صادق ، مع أنه ليس لأحدهما ، فإن صاحب المطلع هو الزعيم مصطفى كامل الذى قال هذه الكلمة فى خطبة شهيرة ألقاها فى مسرح زيرنيا بالإسكندرية ، وقال فيها :

بلادى .. بلادى .. أنت أنت الحياة .. ولا حياة إلا بك يا مصر .

لقد اشتهرت الأناشيد الوطنية في مصر خلال ثورة ١٩١٩ ، ثم أصبحت لهذا الفن الشعري قواعد وأصول تربط بين الكلمات والألحان ، ولكن بداية هذا الفن كانت عندما ألف رفاة بك ولكن بداية هذا الفن كانت عندما ألف رفاة بك منظوماته الوطنية وجعلها على ألحان الموسيقى القديمة ، ومنها :

#### « مذهب »

ياصاح حب الوطن حلية كل فطن  
( دور )

محبة الأوطان من شعب الإيمان  
في أفخر الأديان آية كل مؤمن  
والمذهب ثابت في النشيد كله ، ولكن الأدوار تتغير ومنها هذا الدور :  
مصر لها أياى على البلاد  
وفخرها ينادى ما المجد إلا دىنى

وأنت ترى أن المذهب ينشد مع كل دور ، ومن هذه الأدوار :  
دار نعيم زاهية ومعدن الرفاهية  
آمرة وناهية قديما لكل المدن  
قوة مصر القاهرة على سواها ظاهرة  
وبالبحار زاهرة خُصّت بذكر حسن

ومن الواضح أن رفاة بك قد ركب هذا النظم على أنغام موسيقية معروفة عند الملحنين في أيامه وهى أنغام الموسيقى الشرقية ، ولكن الذى حدث في عهد محمد على هو ظهور نوع آخر من الموسيقى العسكرية عندما أنشئ الجيش المصرى الحديث .

وعلى أنغام هذه الموسيقى العسكرية نظم رفاة بك بعض الأناشيد ومنها نشيد تقول بعض

كلماته :

|      |        |        |      |        |         |
|------|--------|--------|------|--------|---------|
| نظم  | جندنا  | نظما   | عجيا | يعجز   | الفها   |
| بأسد | ترعب   | الخصما | فن   | يقوى   | يناضلنا |
| رجال | ما لها | عدد    | كمال | نظامها | العدد   |

حلاها الدرع والزرد سنان الرمح عاملنا

• • •

لنا في الجيش فرسان لهم عند اللقاشان  
وفي الهيجاء عنوان تهم به صواهلنا

لقد استطاع رفاة بك إبداع هذا الفن الجديد في الشعر العربي ، بل إنه حاول نشره عن طريق تلاميذه الذين على طريقته ، وقد نبغ منهم في هذا اللون من النظم السيد صالح مجدى . نظم مجدى خمس عشرة منظومة من هذه الوطنيات ، وعرضها على والى مصر سعيد باشا فأمر بتلحينها على الموسيقى العسكرية في أداء التحية لدى التشريفات الخديوية والاستقبالات العمومية والمواسم الميلادية .

وهذه أول مرة في التاريخ المصرى الحديث ، يعترف فيها بالنشيد القومى ، ولكن هذه الأناشيد أو الوطنيات التى ألفها السيد صالح مجدى لم تصل إلى النص المطلوب للنشيد ، لأنها ارتبطت بشخصية الوالى مع ارتباطها بالوطن في نفس الوقت ، ومعنى ذلك أن نصوصها لم تصل إلى حد التجريد القومى في نشيد واحد مثل المارسليلز ، نشيد فرنسا القومى ، مع أنها كانت منذ البدايات التى قام بها رفاة بك تحاول تحقيق هذا الهدف .

وليس من العيب أن يعجز رفاة بك وتلميذه السيد صالح مجدى عن الوصول إلى النشيد القومى المصرى في ظل دولة محمد على أو دولة سعيد ؛ لأن هذه الطفرة المفاجئة كانت صعبة المنال ، ولم يكن تكوين الدولة الفردية الاستبدادية مما يسمح بظهور نشيد وطنى مصرى مثل المارسليلز الذى خرج من أتون الثورة الفرنسية غير أن المحاولة كانت مثيرة حقاً .

كيف فكر رفاة بك في تأليف هذه الأناشيد التى سماها الوطنيات كما ذكرت لك ، ولماذا انصرف تفكيره إلى إبداع هذا اللون من النظم الذى لم يمتلك هو ولا تلميذه صالح مجدى كل أدواته ؟

لقد فسر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى هذه الظاهرة تفسيراً عاطفياً ، ونسبها إلى الوطنية المتدفقة عند رفاة بك ، ولكن هذا التفسير الجميل لا يصل بنا إلى حقيقة التفكير الحضارى والتفلمى عند رفاة بك . فإن العاطفة الوطنية وحدها لا تكفى لتحقيق هذه المحاولة الجريئة التى تحتاج إلى عناصر فنية جديدة من ناحية التركيب الشعرى ، ومن ناحية الفن الموسيقى .

ويبدو أن رفاة بك لم يصل إلى تحقيق أهدافه من ناحية إنشاد نظمه على أنغام الموسيقى العسكرية في عهد محمد علي ، وهو نفسه لم يذكر أن وطنياته استخدمت في حفلات التشریفات أو غيرها من الحفلات الرسمية ، مع أن الموسيقى العسكرية كانت قد استحدثت في الجيش أيام محمد علي ، وقد وصفها كلوت بك وصفاً شائقاً ، وذكر أنها موسيقى أوربية وليست شرقية مما كان معروفاً في مصر ، وما زال موجوداً حتى اليوم .

وفن النشيد الوطني يصعب أدائه على طريقة المطربين ، وأنغام (أمان يالالي) أو (طربوشه مايل على خده) ، ولو حدث هذا لكان من المأساوي لأن هذا الفن جماعي في الأصل ، ولا يصلح لغناء التطريب الفردي وما يصاحبه من كورس المنشدين الذين كان يطلق عليهم اسم (السيدة) في الجيل الماضي ، وهم الذين يسندون المطرب في غنائه عند بعض المقاطع .

إنني لا أقطع بأن وطنيات رفاة بك لم تنشأ على أنغام الموسيقى العسكرية في عهد محمد علي ، ولكنني خلال قراءتي في الوثائق وبين السطور ، لم أقرأ شيئاً عن ذلك ، رغم أن رفاة بك استخدم كلمة الدور والمذهب في نصوصه الشعرية ، وهاتان كلمتان موسيقيتان في العرف السائد ، وهما من ألفاظ الموسيقى الشرقية .

ولكن الذي لا شك فيه أن صالح مجدى استطاع تقديم منظوماته للتلحين والعزف على الموسيقى العسكرية كما قلت لك .

ألف صالح مجدى وطنياته بطرق متعددة .

• طريقة الملاحم .

• طريقة الغناء الشرق النغم ومنه التواشيح وأغنيات المذهب والدور .

• طريقة النشيد التحرر من المذهب تحرراً كاملاً .

وأنت تسألني التفسير .

لقد كتب صالح مجدى ملحمةً مصريةً كاملةً ، استخدم فيها المذهب وهو المطلع المتكرر ، واستخدم فيها الأدوار التي لا تكرر ، ولكن هذا الاستخدام الذي حشاه حشواً بمدح سعيد باشا يمكن تجريده لحكاية التاريخ المصرى منذ سبعة آلاف سنة ، وهذه الملحمة المصرية تقول كلماتها :

مصرايم وضع الأساس من بعد أحكام القياس

وسعيد للخلق ساس وبغزمه أبدى الحماس  
بوزريس في بعد السير قد شاد (قوصا) واقتخر  
وبغزمه بلغ المراد  
أبوابها فيما ظهر مائة كما جاء الخبر  
وجنوده عدد الجراد  
موريس سلطان نبيل ملك الورى قبل الخليل  
فجابههم عند الرحيل ببحيرة الفيض الفضيل  
للرى في العام الجهاد  
شوريد في سفر الأمم في زعمهم شاد الهرم  
حتى إذا الطوفان عم آوى إليه واعتصم  
مما طغى منه وزاد  
واينتفيس بلا محال ربي بأمطار النوال  
مع نجله زمر العيال فسما على كل الرجال  
بمناقب الملك الجواد  
وستروستريس أبو الصفاح والسمر في يوم الكفاح  
أسدى لدولته النجاح وثار خده غرس الفلاح  
ولمصر بالعدل جاد  
ناخوس في وصل البحار خاب الرجا منه وچار  
والعرب أرباب الفخار لم يلحقوا منه الغبار  
والداورى بالقصر ساد  
والروم أصحاب الطرب في مصر قد بلغوا الأرب  
فجلاهم عنها العرب أهل الشهامة والرتب  
وأولو السماحة والرشاد  
الظاهر الليث الفجور وأزال عن مصر الفتور  
وأنا لها طيب الرقاد

هذا النظم الثقيل الذى نقلت لك بعضه ، كان من خصائص العصر الذى كتب فيه ،

وهو ليس من الشعر في شيء ، ولكنه يحمل دلالات هامة في تاريخ النهضة الأدبية المصرية ، فهو لون من شعر الملاحم ، وأنت ترى شبيهاً له في ترجمة بطرس البستاني للإلياذة هوميروس بعد ذلك بسنوات طويلة .

لم يكن رفاة بك ولا تلميذه صالح مجدى شاعرين ، ولكنها كانا ينظران الشعر بهذه الطريقة ، أملاً في الوصول إلى النشيد الوطني المصري .

قال صالح مجدى في مطلع نشيد من هذه الأناشيد :

جيش سعيد يامصرى  
أبشر بالفتح وبالنصر

وكان سعيد باشا قد أعد جيشاً من أصحاب الأجسام ، ورويت عنه روايات كثيرة في محاولة إظهار البطولة العسكرية في ميادين ليست هي على كل حال ميادين القتال ، فقد ذكروا عنه أن فرش البارود على مساحة من الأرض ، ثم امتطى صهوة جواده ، وأشعل السيجار ، وجرى فوق البارود ، واعتبر هذه الحركة من ألوان البطولة لأن شعلة السيجار لم تسقط على البارود لتشتعله ، فتحدث فرقة قد تنسف الحصان وراكب الحصان .

وسعيد باشا هو الذى باع امتياز حفر قناة السويس للمقامر الفرنسى ديلبس ، وكان الثمن طبق مكرونة ، ضحك به ديلبس على ذقن الباشا .

وهذا الوالى هو الذى وافق على إنشاد منظومات صالح مجدى على الموسيقى العسكرية ؛ لأنها توافقت مع أهوائه في صنع جيش من الجنود طوال القامات ، ولم يفهم سعيد باشا ما أراد رفاة بك أو تلميذه صالح مجدى من محاولة وجود نشيد قومى مصرى ؛ ولذلك تبددت هذه الجهود في الهواء ، وساعد على ضياعها أنها كانت ترتبط بالوالى سعيد باشا ، وكان بعضها يقال في مناسبة عيد ميلاده ، ومنها موشع كتبه صالح مجدى ، وهو ليس من الوطنيات ، ولكنه يحمل الدلالات على الجو الذى كان سائداً .

يقول صالح مجدى :

وفى ميلاد أبى الاسعاد  
أتى القضاء للاستئناس  
فكل قال بصوت عال  
له الإقبال سعيد الناس

ولكن . . ما هي قيمة هذه الوطنيات التي كتبها رفاعه بك وصالح مجدى ؟  
 عندما اختلطت الرغبة في تأليف الأناشيد الوطنية مع الرغبة في إرضاء الحاكم ، سقطت  
 فكرة وجود النشيد الوطنى المصرى ، مع أن بذورها كانت موجودة كما ذكرت لك ، ولذلك لم  
 يوجد شاعر أو نظام يكتب الوطنيات بعد رفاعه بك وتلميذه صالح مجدى .  
 تصور أن الحركة الشعرية المصرية مع تجردها وانطلاقها لم تلتفت إلى هذا الفن  
 الشعرى الجديد الذى ابتكره رفاعه بك وسار على نهجه تلميذه صالح مجدى ، مع أن بعض  
 تلاميذ رفاعه بك كانوا يقولون الشعر ومنهم إبراهيم بك مرزوق ، وله ديوان لطيف اسمه ( الدر  
 البهى المنسوق ) ولكنه لم يكتب أو ينظم وطنية واحدة ، وهو زميل صالح بك مجدى ،  
 وكلاهما تلميذان لرفاعة بك .

وبعد ذلك جاء الشاعر صفوت الساعاتى والشيخ على الليثى والشيخ على أبو النصر  
 المنفلوطى . . ثم البارودى العملاق . . وإسماعيل باشا صبرى . . وأحمد شوقى . . وحافظ .  
 ولم يظهر النشيد الوطنى أول مرة إلا عندما أنشد سيد درويش :  
 بلادى . . بلادى .

وكان ذلك فى عفوان ثورة ١٩١٩ ، ومازلنا فى حيرة : من الذى ألف هذا النشيد ؟  
 ليس معنى ذلك أن مصر لم تعرف الغناء الجماعى ، فقد عرفته فى عصر المماليك ، وهو نوع  
 من الفولكلور ، ولكنه ليس نشيداً على شروط النشيد : لأن الإنشاد الجماعى فى المواقف  
 الوطنية أو الأفراح أو الإنشاد الجماعى فى المواقف الوطنية أو الأفراح أو الإنشاد الدينى لا يحمل  
 مقومات النشيد الوطنى الذى تعرفه الشعوب ، ونعرفه نحن أيضاً منذ ثورة ١٩١١ ، وهو الذى  
 حاول رفاعه بك أن يحققه فى مصر .

ويبدو أن الأناشيد الوطنية لا تنبع من ضمائر الشعور فى ظل الحكم الاستبدادى ، ولكنها  
 تنبع من الثورات ، وهذا هو ما حدث فى فرنسا أيام الثورة ، كما حدث فى مصر عندما قامت  
 ثورة ١٩١٩ .

ثم يبق بعد ذلك شىء هام فى تاريخ الآداب العربية الحديثة ، وهو أن رفاعه بك كان  
 سابقاً لعصره عندما كتب وطنياته ، وهى بذور الأناشيد الوطنية ، وهذا سبق فى التفكير يدل  
 على أن هذا الأستاذ العظيم كانت له مواهب خارقة من ناحية الفكر المستقبلى لمصر وللشعوب  
 العربية كلها ، وليس من الضرورى أن يكون شاعراً أو أميراً للشعراء .

كان رفاعه بك أميرًا للفكر .

وقد تسألني قبل أن أودعك في هذه الكلمات :

— لماذا سميت رفاعه رافع الطهطاوى باسم رفاعه بك ؟

أقول لك يا صاحبي إن اسم ( رفاعه بك ) كان يكنى لمعرفته في كل مكان في مصر . وكان يكتب في كل وثيقة ، وفي كل خطاب أو ورقة أو على صدر كتاب .

ظل ( رفاعه بك ) يحمل هذا اللقب ، ولا يحمل لقب باشا .

وظل ( شوقي بك ) أمير الشعراء يحمل هذا اللقب ولا يحمل لقب باشا .

أردت مداعبتك عندما جعلت عنوان هذا المقال ( رفاعه بك ) حتى تعلم أن أعلام العلماء لا يزيدهم اللقب شيئًا ، وأن أمراء الشعراء لا ينتقص من قدرهم أنهم لا يحملون الألقاب . لقد كان بعض تلاميذ ( رفاعه بك ) من الباشوات الذين نسينا بعض أسمائهم .. ولكننا سنظل نذكر اسم رفاعه رافع الطهطاوى بلا لقب .. لأن اسمه أسمى من كل الألقاب .

## الأستاذ محمد بيومي أفندى

عالم رياضيات ففدته جامعة باريس

عندما يكون الأستاذ أصغر سناً من التلميذ ، يصبح الحديث عن العبقرية أمراً مطلوباً .  
فإذا كان هذا الأستاذ الشاب قد رشحته جامعة باريس للتدريس في كلية الهندسة فإن البحث  
عن سمات عبقريته يصبح أمراً واجباً .

ولم يكن هذا الأستاذ الشاب فرنسياً حتى يتولى تدريس العلوم الرياضية في جامعة باريس  
العريقة ، ولكنه كان محمد بيومي أفندى الذى طرده الوالى عباس باشا الأول من القاهرة ،  
وعينه مدرساً للحساب في مدرسة الخرطوم الابتدائية عندما طرد زميله رفاعة بك وعينه ناظراً  
لهذه المدرسة .

منذ أكثر من ثلاثين عاماً لم تفارق صورة محمد بيومي خيالى ، ومازلت أنخيلها وكأننى أراه  
أمامى ، وأنا لم أر له صورة مرسومة ، فقد اختطفه الموت قبل أن يجلس أمام رسام ليرسم  
صورته ، كما صور الأكابر من زملائه . . أو من تلاميذه ، وأنا أستوحى ملامح الشخصية من  
الصور المرسومة في بعض الأحيان ، وقد أعجبني كتاب عن شاعر الألمان ( يوهان ولتجانج  
فون جوتنه ) كان من أعاجيب الكتب لأن مؤلفه جعل عنوانه ( جوتنه فى صور ) ، وكلما قلبت  
صفحات هذا الكتاب وتأملت الصور المرسومة والصور الفوتوغرافية ازداد حبى للشاعر ،  
وزدت معرفتى به ، مع أن الصور الفوتوغرافية ليست إلا صور أماكن وقصور وغرف لأن  
عصر جوتنه لم يكن قد وصل إلى آلة التصوير الفوتوغرافى .

وعندما قرأت فى كتاب الجبرقى أن المشايخ كانوا يكبرون العالم ، ويوسعون أكام  
القفاطين والجبب والفراجيات كلما كبر قدرهم وشاهدت الصور المرسومة للمشايخ الكبار أيام  
الحملة الفرنسية ، ازداد فهمى لحقائق التاريخ ، فقد كانت عامة الشيخ عبد الله الشرقاوى  
مما تنوء بحمله الرؤوس لأنه كان شيخاً للأزهر . وقد كبر عامته لتليق بهذا المنصب الجليل .  
وقد تحيلت صورة محمد بيومي من واقع عصره . فهو أفندى صغير يسوى شاربه ولا يطلق

لحيته . ويرتدى الثياب الافرنجية . ويضع على رأسه طربوشاً يغطى أذنيه وسوالفه وشعره الطويل . فقد كانت هذه هى موضة عصره .

وتخليلته أسمر الوجه وسيماً . براق العينين يشع الذكاء من قسجات وجهه قبل أن يشع من عينيه .

ثم تخليلته مرةً أخرى فى زى زميله الذى سافر معه فى البعثة إلى باريس (رفاعة بك) بالثياب المصرية المقصبة والعامة المسواة بشال من الحرير الفاخر . وهى ليست مثل عائم المشايخ . ولا جيته وقفطانه على نمط قفاطين المشايخ وجيبهم . ولكنها محبوكة الأطراف فى تنميق ودقة . ولها وشى من الحرير المقصب بالذهب .

وقد تراوحت صور محمد بيومى فى خيالى وأمام عيني . لسبب مجهول لا أدريه .

هل هو الحب لهذا العبقري مجهول التاريخ ؟

هل هو الرغبة فى معرفته عن قرب . وهو الذى أطاحت به مظالم عباس باشا الأول

فأصيب بضربة شمس فى الخرطوم أنهت قصة عبقريته ؟ .

فى بعض الأحيان يصبح المجهول معلوماً ، ويصبح المعلوم مجهولاً ، ثم تنتهى إلى كلمة

بلا معنى !

- لست أدري ! !

يغيب العقل . ويتوارى الوجدان خلف ضباب الزمن . ثم يصبح الإنسان خرقاً مهلهلاً

بلا عقل ولا قلب . . وهذا هو ما يحدث فى فترات الضياع عندما يصبح الإنسان داخل دائرة

( لست أدري ) . .

إن مأساة الأستاذ محمد بيومى جعلتني أقول لنفسي .

- لست أدري .

ولم يكن السبب هو أننى عجزت عن معرفة تفصيل تاريخ حياته ، ولكن لأننى وقفت

أمامه مذهولاً لست أدري كيف استطاع الوصول إلى هذه العبقرية الفذة الحافظة التى أحرقتها

ضربة شمس أصابت رأس صاحبها تحت سماء الخرطوم ؟

لقد كتب أمين باشا سامى مؤرخ الحركة العلمية فى مصر منذ عهد محمد على حتى عصر

إسماعيل . تاريخ حياة الأستاذ محمد بيومى فى أسطر . كانت أقصر من كتابة نعى لبائع

كاوتشوك أو تاجر سيارات ينشر فى جريدة يومية .

وهذه هي السطور . أعيد لك كتابتها . لنقرأها معًا :

« سافر لفرنسا في سنة ١٢٤١ هـ ١٨٢٦ م وحضر في سنة ١٢٥٠ هـ بعد أن تم دراسة المهندسخانة بفرنسا . وتعين مدرسًا بمدرسة المهندسخانة ببولاق في السنة المذكورة . وتلقى عليه كثير من الذين هم أكبر منه سنا في عصره مثل سلامة باشا وإسماعيل باشا محمد ومحمود باشا الفلكي وعامر بك . ووكل لعهدته وهو مدرس بالمهندسخانة استكمال معارف كل من طایل ودقلة المعيدين بها لأنها حضرا من أوروبا بدون تميم دراستها . وله جملة مؤلفات منها كتب ( جبر الأثقال ) وكتاب ( حساب المثلثات ) وكتاب ( الجبر ) وغيرها التي طبعت في عهد محمد علي باشا .

وفي عصر عباس باشا تعين مدرسًا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم بأمر صدر منه . وتوفى بها في منفاه . وهو من أعلم العلماء في الرياضة .

وقد حضر أحد رفقاته من فرنسا لرؤيته بالخرطوم بتوصية من حكومة فرنسا في سنة ١٨٥٠ م . وبعد رؤيته طبع كتابًا خاصًا بما رآه عنوانه ( محمد بيومي في منفاه - سنة ١٨٥٠ م ) .

وأنا أكتب عن الأستاذ محمد بيومي بعد مائة وثلاثين عامًا من صدور هذا الكتاب الفرنسى الذى ألفه أحد زملائه عنه بعد زيارته فى الخرطوم وقبل أن تنتهى رحلته الترابية الحافظة . ولكنى لم أستطع الوصول إلى هذا الكتاب الذى حدثنا عنه أمين باشا سامى . وأعتقد أنه قرأ الكتاب أو شاهده على أقل تقدير ؛ لأن هذا المؤرخ الذى نسيناه فى تيار ( لست أدري ) كان من أعظم المحققين المدققين . بل إن كتابه الموسوعى الضخم الذى سماه ( تقوم النيل ) ، يعتبر أعظم سجل للتاريخ المصرى الحديث منذ عصر محمد على حتى عصر إسماعيل . وهو كتب وثائقى نادر لأنه جمع ما استطاع من وثائق هذا العصر وترجم ما كان منها بالتركية أو الفرنسية إلى اللغة العربية .

ولكن تعريفه بالأستاذ محمد بيومي اقتصر على هذه السطور القليلة التى نقلتها لك . مع أن هذا الأستاذ كان من مشاهير عصره . حتى أن الحكومة الفرنسية أرسلت إليه أحد زملائه الذين درسوا معه فى باريس للاتفاق على السفر إلى فرنسا والتدريس فى كلية الهندسة بجامعة السوربون .

كانت مأساة محمد بيومي مثل غيره من الأساتذة الذين شتتهم عباس باشا الأول بعد أن

أغلق المدارس في مصر بسبب حصانه الأحمر الذي نفق بعد أن عجز الأطباء البيطريون عن علاجه . فأغلق مدرسة الطب البيطري . وطرد كل الأطباء البيطريين من خدمة الحكومة . ثم استهواه الشيطان فأغلق كل المدارس . وأصدر أمره الغريب بتعيين رفاة بك أستاذ الأساتذة ناظرًا لمدرسة الخرطوم الابتدائية كما عين النوايح من أساتذة المهندسخانة وغيرها من المدارس العليا مدرسين في هذه المدرسة مع ناظرهم رفاة بك .

بسبب الحصان الأحمر الذي توقفت النهضة في مصر . ومات محمد بيومي . ولم يكن هو الضحية الوحيدة لجنون عباس الأول ، فهناك زميل آخر له هو ( أحمد طایل أفندي ) الذي ذهب إلى الخرطوم صحبة رفاة بك والأستاذ بيومي ، وعاد من منفاه في أول حكم سعيد باشا مصابًا بالحمى ، وتوفي بعد وصوله إلى القاهرة بليتين .

وكان ( أحمد طایل ) من أبناء إحدى قرى مركز طوخ بالقلوبية وبعد أن تعلم في مصر أرسل في بعثة إلى فرنسا لدراسة الهندسة ، وعاد في سنة ١٨٣٥ م ، وعين بمدرسة المهندسخانة مساعد مدرس ومعيدًا للدروس الأستاذ محمد بيومي ، ثم عين مدرسًا للعلوم الميكانيكية والجبر ، ثم مهندسًا للركاب العالي سنة ١٨٤٢ في عهد محمد علي . ثم حدثت مأساته في عصر عباس الأول كما قلت لك ، وكان الرجل الثاني الذي اختطفه الموت بعد زميله محمد بيومي .

قال علي باشا مبارك عن الأستاذ أحمد طایل :

« كان قصير القامة ، صغير الجسم ، كثير الفهم ، لا يبالي بأكثر الأمور ، وله جرأة على الأمراء وإقدام . وكان محبًا لتلاميذه يرغب في تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم » . أما الأستاذ بيومي فأصله من دهشور بالجيزة ولكننا لم نصل إلى معرفة تفصيلات عن تعليمه في مصر أو تاريخ ميلاده . أو أسرته وأهله . . مع أنه كان نابغة عصره ، وكان يقفز إلى الجحد قفزًا ، حتى قال عنه علي باشا مبارك إنه كان أستاذًا ومرجعًا لكثير من نوايح المهندسين المصريين وكان إليه المرجع وعليه المعول في مدرسة المهندسخانة .

وقد نقل إلى قلم الترجمة بوزارة المعارف ، واشتغل مع زميله رفاة بك ، ولا نعلم ظروف نقله من عمله المرموق كبيرًا للأساتذة في مدرسة المهندسخانة إلى وظيفة مترجم في قلم الترجمة ولكن أعداء النهضة المصرية من الحكام الجهلاء هم الذين أغلقوا مدرسة الألسن وعينوا ناظرها أستاذ الأساتذة رفاة بك رئيسًا لقلم الترجمة . . ثم عينوه ناظرًا للمدرسة ابتدائية

في الخرطوم وأبعدوا معه زملاءه ومنهم محمد بيومى وأحمد طایل وغيرهما ممن لم تصل إلى أمتانهم وسط زحمة الأحداث . . وظلام هذا العصر الذى تولى فيه الحكم وال مجنون ، حطم دعائم النهضة المصرية الحديثة بسبب حصان أحمرافى نفق بين أبدى الأطباء .

لقد تألفت حياة الأستاذ محمد بيومى فى مدرسة المهندسخانة ببولاق عندما أصبح كبيراً للأستاذة ، فقد كان الأكابر من أساتذة هذه المدرسة العظيمة معيدين له ، فهو لم يعلم التلاميذ وحدهم ، ولكنه كون جيلاً من الأساتذة كان منهم تلميذه وزميله الأستاذ أحمد طایل الذى شاركه مأساته فى الخرطوم واشتغل معه مدرساً فى مدرستها الابتدائية كما حدثتلك عنه . ثم توفى بعد وصوله من منفاه إلى القاهرة ببلتين اثنتين .

ومن هؤلاء المعيدين الذين رعاهم الأستاذ بيومى وعنى بهم ، الأستاذ محمد ذقلة بك ، وأصله من بلدة بسيون مركز كفر الزيات ، وقد سافر إلى فرنسا فى البعثة سنة ١٨٢٨ وعاد سنة ١٨٣٥ ، وعين معيداً لكبير الأساتذة بالمهندسخانة محمد بيومى أفندى ، ثم عين بعد ذلك مدرساً لعلوم الجبر وهندسة الرى والقناطر والجسور . ووكيلاً للمدرسة مع استمراره فى إلقاء الدروس .

قال عنه على باشا مبارك :

وأكثر المهندسين تلقوا عنه ، وكان حسن الإلقاء ، يجتهد فى التعليم ، ويبحث على الفهم وكان من أعظم المهندسين .

ومن تلاميذه ( سلامة باشا إبراهيم ) مفتش هندسة الوجه البحرى ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ثم مفتش عموم ديوان وزارة الأشغال . وكان من كبار المهندسين وقد اشترك فى إنشاء الترعة الإبراهيمية فى صعيد مصر ، وإقامة القناطر عليها .

ومن هؤلاء التلاميذ أيضاً ( إسماعيل باشا محمد ) الذى كان ناظراً لقلم الهندسة ، ومفتشاً لرى الوجه القبلى ، ثم أصبح رئيساً لمجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ .

أما نابغة العلوم الفلكية فى عصره ، الشهير محمود حمدى باشا الفكى . فإنه واحد من تلاميذ كبير الأساتذة بيومى أفندى .

ومنهم ( عامر بك سعد ) أستاذ الرياضيات بالمدارس الحربية .

كثيرون هم تلاميذ الأستاذ محمد بيومى أفندى الذى كان له الفضل الأكبر فى إنشاء المدرسة الهندسية الحديثة فى مصر ، عندما استطاع تخريج أمثال هؤلاء الأكابر الذين زينا

الحياة المصرية بنور العلم ، وكانوا الكواكب الساطعة في سماء النهضة .

لقد كان بعض أعضاء البعثات يعودون إلى مصر قبل إتمام تعليمهم في فرنسا ، لأسباب كثيرة منها عجز بعضهم عن متابعة الدراسة ، أو إلغاء البعثة توفيراً للنفقات ، أو لأسباب شخصية ، فكان هذا الشاب العالم الفذ يتلقفهم ولا يفرط في واحد منهم ويتولى بنفسه تأهيلهم وإتمام علومهم ، حتى يصبحوا في درجة علمية مساوية لزملائهم ، وقد جعل من مدرسة المهندسخانة محراباً للعلوم ، يلجأ إليه ، بناء النهضة الحديثة ، ويحدون فيه المأوى .

فيفتح لهم أستاذهم صفحات الكتب المغلقة ، ويأخذ بأيديهم حتى يجلسهم على مقاعد التدريس ، أو يخرجهم إلى الحياة العامة مهندسين أكفاء قادرين .

وأنت ترى أن أهم أسباب التخلف التي وصلنا إليها هو ما أحكيه لك عن حياة هذا الأستاذ وأمثاله من رواد النهضة الحديثة الذين أصابهم ضربات الحكم المستبد الجاهل أو ضربات الشمس الحارقة الماحقة .

كتب السيد صالح مجدى بك عن رحلة العذاب التي عاشها أستاذه رفاعة بك وزملاؤه في الخرطوم :

- وكان ( رفاعة بك ) - رحمه الله - مدة إقامته يتعنى سرعة عودته إلى مصر . لكنه لم يظفر بجماله إلا بعد انقضاء ولاية المرحوم عباس باشا المتوفى في ثمانى عشر شوال أحد شهور سنة سبعين ومائتين وألف . فلما عاد إلى وطنه بالعافية والصحة والاحترام ، في أوائل حكم خلفه المرحوم محمد سعيد باشا ، المتوفى في ثمان وعشرين من رجب أحد شهور سنة تسع وسبعين بعد المائتين والألف ، حمد الله - سبحانه وتعالى - على الخلاص من ضيق الأقفاس وكان معه هناك عدة من أبناء المعارف من ضمنهم المرحوم محمد أفندى بيومى المهندس الماهر المشهور ، فمات وبالخرطوم قبر في سنة ثمان وستين ومائتين بعد الألف ، ولم يرجع معه إلى القاهرة المحروسة إلا من كان في أجله فسحة » .

لم يذكر صالح مجدى أسماء من كانوا مع رفاعة بك في الخرطوم ، ولكن عبارته تدل على أن آخرين من الأماتذة قد ماتوا هناك ، غير الأستاذ بيومى أفندى المهندس الماهر المعهود وهذه هى إحدى جنائبات الطغيان والاستبداد التي عاشت مصر في ظلامها منذ بدايات النهضة الحديثة التي سبقت نهضة اليابان ، ثم انتكست فوصلنا إلى ما نحن فيه الآن ، حيث نبدأ عصر النهضة من جديد .

مضت مائة وثلاثون سنة منذ وفاة الأستاذ محمد بيومي أفندى فى الخرطوم .  
 وخلال هذه السنوات ظلّت مصر متمسكة بوسائل النهضة الحديثة فى إصرار ، وظلت  
 تكافح فى ميادين مختلفة عسكرية وسياسية واقتصادية ، تنتصر أحياناً وتتكسر أحياناً ، ولكنها  
 رغم ذلك قادت النهضة العلمية إلى جانب قيادتها لحركات النضال الوطنى .  
 لقد كانت الرحلة القصيرة للأستاذ محمد بيومي أفندى من أعظم وأنصع معالم هذه  
 النهضة ، وكان دوره فى العلوم الرياضية والهندسة مواكباً لدور زميله ( رفاعة بك ) فى العلوم  
 الإنسانية .

كان هذا الأستاذ الجليل أول مترجم ومؤلف فى الهندسة والرياضيات باللغة العربية التى  
 كان يدرس بها هذه العلوم فى مدرسة المهندسخانة ، وقد طبعت كتبه فى مطبعة بولاق وكانت  
 من بشائر النهضة .

وأشهر هذه الكتب المترجمة عن الفرنسية :

- جر الأثقال .
- الجبر والمقابلة .
- ثمر الاكتساب فى علم الحساب .
- الهندسة الوصفية .
- جامع الثمرات فى حساب المثلثات .

وقد شجع هذا العمل الرائد لهذا الأستاذ النابه غيره من زملائه على تأليف الكتب الهندسية  
 والرياضية باللغة العربية ، فألف أحمد دقلة بك كتاب ( رضاب الغانيات فى حساب  
 المثلثات ) ، كما ألف غيره كتباً عديدة فى هذه العلوم الحديثة وهى كتب مطبوعة ، وكانت  
 تدرس فى مدرسة المهندسخانة ، بل إن ( على باشا مبارك ) الذى تولى نظارة المدرسة فى الجيل  
 اللاحق يحيل الأستاذ بيومي أفندى أنشأ مطبعة خاصة لطباعة الكتب الهندسية وكتب  
 الرياضيات فى مدرسة المهندسخانة .

وهؤلاء الأكابر من صناع النهضة المصرية ، كانوا يدركون أن إعادة بناء الحضارة فى مصر  
 ترتبط بلغة مصر ، فنقلوا العلوم الحديثة إلى العربية ، ودرسوها فى الطب والهندسة والجغرافية  
 والفلك وسائر العلوم بهذه اللغة القادرة .

لم يسأل واحد منهم هذا السؤال الخائب :

- هل تستطيع اللغة العربية احتواء علوم العصر وتكنولوجيا العصر؟

ولم ينتظر واحد من هؤلاء العظماء إجابة عن هذا السؤال .

ولكنهم ترجموا ، وألقوا ، ودرسوا ، وطبعوا كتبهم . بلغتهم القومية . ولم تكن عندهم عقدة الخوف من اللغات الأجنبية التي أتقنها إتقاناً عظيماً ، ولم يقولوا إن التأليف والتدريس باللغة العربية يمنع العلماء من إتقان اللغات الأخرى . أو يحول بين الطلاب وبين دراسة اللغات الأخرى .

كانت القضية الأساسية عند الأستاذ محمد بيومي أفندي وأمثاله من الرواد الأوائل هي صنع النهضة الحديثة ، وقهر الظلام وإطلاق أشعة النور ، فلم يفكروا في قدرة لغتهم على استيعاب حضارة العصر ، ولكنهم فكروا في قدرة عقولهم على صنع حضارة مصر بلغة مصر ، حتى يصل شعاع النور إلى كل العقول .

إن الألمان يدرسون كل العلوم بلغتهم الألمانية وهي ليست لغة عالمية مثل الفرنسية والإنجليزية ، فهل أنقص هذا من قدر العلوم عند الألمان بسبب اللغة ، أو منع العلماء والطلاب عندهم من معرفة اللغات الأخرى ؟

أليس يكفي أن يكون من الألمان ( أينشتاين ) أكبر علماء القرن العشرين ؟ أقول لك إنه لو كان ( رفاة بك ) قد نجح في نقل معالم الحضارة في العلوم الإنسانية إلى اللغة العربية عند مطالع هذا العصر ، فإن الأستاذ محمد بيومي أفندي كان أكثر نجاحاً لأنه نقل علوم الهندسة والرياضيات إلى لغتنا العربية .

ولكننا وقد مضى أكثر من قرن من الزمان بعد وفاة الأستاذ محمد بيومي أفندي ، سمعنا شاعر النيل حافظ إبراهيم يقول عن اللغة العربية وهي تنعى حظها بين أهلها في سنة ١٩٠٣ :

وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً .

وَمَا ضِيقَتْ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتٍ

فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ

وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتٍ

أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدَّرُكَامِنُ

فَهَلْ سَأَلُوا الْغَوَاصَ عَنْ صَدْفَاتِي

.....

أبهجرنى قومي ، عفا الله عنهم  
 إلى لغة لم تتصل برواة  
 سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى  
 لعاب الأفاعي في مسيل فرات .

لو بعث الأستاذ بيومي من قبره المجهول المكان في الخرطوم ، لقال لشاعر النيل حافظ .  
 إبراهيم الذي نزع الإنجليز رتبته العسكرية في الخرطوم وأعادوه إلى مصر :  
 - لا يا شاعر النيل . . ها هي كتبي بلغتني فيها كل ما طلبته من وصف الآلات وذكر  
 المخترعات .  
 حقاً . . كان هذا الأستاذ المهندس الماهر من عظماء مصر في هذا العصر .